الفصل الثالث

في الأزهر

ارتباط المعهد بالمسجد

وكان المسجد – طيلة القرون الماضية ، منذ بدأ الإسلام ، إلى عهد قريب – يرتبط بالمعهد – أى يرتبط بالعلم – برباط وثيق .

وكان المعهد « العلم » شديد الارتباط بالمسجد ، لقد فقدنا – نحن الآن – فكرة « المسجد المعهد » أو « المعهد المسجد » ، ويجب أن نحييها من جديد ، ونعود إليها .

إنه فرق هائل أن تدرس تفسير القرآن الكريم ، والحديث النبوى الشريف ، والفقه ، فى المسجد ، وأن تدرس ذلك فى غرفة فى مبنى ، لا يشع منه ما يشع فى المسجد من نور الإيمان ، وجلال المكان ، وعبير العبادة .

لقد كان « الإمام مالك » رضى الله عنه ، يتوضأ ، ويلبس أحسن ملابسه ، ويتعطر ، ثم يذهب لشرح الحديث الشريف فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إن حياة المسجد بالمعهد ، وحياة المعهد بالمسجد ، وينبغى أن يعود الارتباط بينهما وثيقاً كما كان .

وفى أول يوم لبدء الدراسة ، ارتفع صوت المؤذن لصلاة الظهر – عندما حان وقته – فى خشوع وجلال ، وتأهبنا للصلاة ، . وتخلف

بعض الطلبة عن القيام لها . إما لأنهم لم يتسلحوا بالوضوء من قبل والوضوء سلاح المؤمن – وإما على سبيل الكسل والتهاون ، وإما لأنهم لم يتعودوا الصلاة فى أول وقتها . . . وأيًّا ما كان سبب التقاعد عن الصلاة ، فقد أخذت « خيزرانة » المراقب تؤدى واجبها – نحو المتقاعدين – فى جدٍّ ، ونشاط ، وفرَّ الطلبة أمام المراقب ، وهو يلاحقهم ، . . . ثم تعودوا – بعد ذلك – أداء الصلاة لوقتها ، لم يتكاسل منهم أحد .

الزواج المبكر عصمة وعفة

فى منتصف العام – تقريباً – زارنى والدى – رحمه الله تعالى – فى المعهد المسجد ، ولعله جاء إلى المعهد – بالذات – ليقف على مدى انتظامى فى الدراسة ! ولعله – أولاً – أخذ يراقبنى عن بعد ، ثم التقى بى ، وشرع يحدثنى عن « الزواج » وعرض علىَّ أسماء فتيات ، واستطلع رأيى .

كانت سنى – آنذاك – ثلاث عشرة سنة . وكان رأيى الذى قلته له : « الأمر لك ، ولوالدتى » !

وعاد والدى إلى « العزبة » . ومضت فترة ، جاءنى بعدها خطاب ، يقول فيه والدى :

« إن الأسرة كلها فى شوق إليك ، فاحضر ، لتراك ، ولتطفئ غلة شوقها إليك .

وعدت إلى « العزبة » فى مساء الأربعاء ، . . . وتمّ عقد زواجى فى يوم الخميس ، . . . وعدت إلى القاهرة فى يوم الجمعة . . .

هذا الزواج المبكر – إذا كانت الحال ميسورة – ماذا تقول فيه ؟ .

إنه عصمة ، وعفة ! !

وما من شك فى أن الآراء تختلف فى شأنه ؛ ولكن الأمر الذى لا مرية فيه ، هو أن تأخير الزواج . – كما هو الشأن الآن – فيه خطورة كبيرة على الذكور ، وعلى الإناث أيضاً ، خطورة على العصمة ، وعلى العفّة . ولا يمارى فى ذلك إلا مكابر أو متجاهل .

ولعل خير ما نذكره فى ذلك ، ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم ناصحاً الشباب :

« يا معشر الشباب ! من استطاع منكم الباءة[١] فليتزوج ؛ ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإنه له وجاء[٢] » .

الاحتفال بزفاف

. . . ونجحت فى الامتحان ، وعدت لأقضى العطلة الصيفية بين الأهل فى « العزبة » . وانتهزوها فرصة ، لإتمام الزواج بالزفاف : وركبت الفرس – كما هى العادة فى الريف – وطاف بى فى شوارع « العزبة » وحولها ، وتعالت الزغاريد ودقت الطبول ، وصدحت المزامير ، وأطلقت الأعيرة النارية بكثرة غير معهودة ،وارتفعت أصوات الغناء ، . . ثم مدت الموائد ، واجتمع الناس على طعام كثير ، وخير وفير ، . . .

---

(١) الباءة : النفقة .

(٢) الوجاء : الحفظ والصون .

ثم كان ذكر الله تعالى ، وقرآن يتلوه قراء مشهورون . وسهر الناس – سكان « العزبة » ، وما جاورها – ليلة ممتعة ، ظل طيفها ماثلاً فى الأذهان سنوات طويلة ، يتحدث به من شهده .

مضى – على ذلك الآن – أكثر من نصف قرن ، وما زالت الحياة تسير بى وبزوجى ، رخاء . والحمد لله .

ومرت السنة الثانية – بالأزهر ، طبيعية – دراسة ، واستذكاراً ، قضيناها بمسجد « المؤيد » . وهو مسجد جميل ، أحببناه ، وأحببنا مواصلة الدراسة فيه .

وفى خلال هذين العامين شهدت موقفين كانا فى غاية الروعة :

سعد . . . عائد من المنفى

أما المنظر الأول فهو منظر استقبال « سعد باشا » وهو عائد من المنفى . . .

لقد خرجت القاهرة على بكرة أبيها ، خرج رجالها ونساؤها شبابها وفتياتها . تستقبل « سعداً » فى حماس بالغ . . . .

وخرج الأزهر بخطبائه ، وبشعرائه ، وكان الهتاف يدوى – فى كل مكان – عالياً ، مؤثراً . . . كان الشعور العام كله فى غمرة من الفرح . . . كان منظراً رائعاً ، فريداً لا ينسى .

إضراب الأزهر

وأما ثانيهما فقد كان منظر إضراب الأزهر : كان الأزهر هائجاً مائجاً ، وكانت الوزارة القائمة وزارة « سعد باشا زغلول » حينذاك لم أكن أعلم – آنذاك – عن الأسباب والبواعث والغايات شيئاً ، ومع ذلك ذهبت إلى الجامع الأزهر مشاركاً « بجسمى » ، متفرجاً ، مستطلعاً .

وكان المشايخ « الطلبة » ينتظرون قدوم شخص من قِبل « سعد باشا » .

وجاء الشخص : شاب ، وسيم ، فتىّ ، يمتلئ حيوية ونشاطاً ، يكاد يقفز فى خطواته ، يشبه أن يكون متحفزاً ، دائم التحفز ، وتكاد كلماته أن تتدفق بنفسها من فمه ، عذبة ، قوية ، مقنعة : وكان هذا الشاب هو « إبراهيم عبد الهادى » .

اعتلى منبر الأزهر ، وخطب ، وخيل إلىّ – إذ ذاك – أنه أفاد وأقنع ، وأنه بلغ فى الإقناع درجة لا تقبل المناقشة،وتلفت يميناً وشمالاً ؛ لأرى الأزهرى الذى يتصدى لخطر الرد !

وقام الأزهرى ! وكان الشيخ « محمد الأودن » رحمه الله ، وغفر له وتحدث وأجاد ، وأخذت حججه تتوالى قوية ، فياضة ، متدفقة ، متماسكة ، وأرضى شعور الأزهريين ، ببلاغته ، وإجادته .

ماذا حدث بعد ذلك ؟ لا أدرى .

فيم كان الإضراب ؟ وعلام تم الاتفاق ؟ .

كل ذلك لا أدرى عنه شيئاً .

التحاقى بمعهد الزقازيق

أما فى السنة الثالثة ، فقد طرأ تغيير – إلى حد كبير – فقد انتقلنا من المسجد – الذى ألفنا الدراسة فيه ، وعشقناها ، إلى غرفة فى مبنى ، ليس له قداسة المسجد ولا روحانيته ، انتقلنا إلى « معهد الزقازيق » . الذى أنشئ ليكون فرعاً للأزهر بالشرقية .

التحقت بمعهد الزقازيق فى أول يوم لافتتاحه ، ورأيت فى ذلك اليوم ، المرحوم « الشيخ إبراهيم الجبالى » بقامته الفارعة ، وجسمه الملىء ، وملابسه الفضفاضة ، وصوته الجهورى ، وسمته المهيب ، فقد كان – رحمه الله – عالماً ، أديباً ، كاتباً ، متحدثاً ، لبقاً .

خطب فينا ، ونصحنا ووعظنا ، وتأثرنا بحديثه تأثيراً عميقاً . ثم انتظمنا فى سلك الدراسة بالمعهد .

اتصالى بالصحافة

وفى معهد الزقازيق بدأ اتصالنا بالصحافة ، حيث بدأنا نقرأ الصحف ، وكنا – إذ ذاك – نقتصر على صحيفة واحدة تقريباً . هى صحيفة « الأخبار » التى كان يصدرها « أمين الرافعى » عليه رحمة الله تعالى .

أمين الرافعي وصحيفة الأخبار

كان يتمثل فى هذه الصحيفة تياران :

تيار المعارضة : وكانت الصحف – فى ذلك الزمن – حرة كل الحرية ، لا تقيدها قيود ، ولا تحول دون هجومها على ما يجاف الحق – من وجهة نظرها – حوائل . كانت تنقد كل معوجّ ، وتناقش كل أمر ، لا تراه يمثل المصلحة العامة ، ومن أجل هذه العيون الساهرة من الناقدين ، كانت الأفراد ، وكانت الحكومات لا تقدم على عمل ما ، يُشَهَّر بها فيه ، وربما أقدم الفرد ، أو أقدمت الحكومة على عمل ، فواجهها النقد صريحاً ، بنّاء ، جريئاً صاخباً ، فيتراجع الفرد ، وتتراجع الحكومة عن المعنى فى هذا العمل .

ولهذا كان هناك نوع من الاستقامة ، لا تجده فى العهود التى كممت فيها أفواه الصحافة ، وحجر على حريتها . . . ويرحم الله « أمين الرافعى » ؛ فقد كان سوط عذاب على كل منحرف ، وعاش شريفاً طيلة حياته .

مقالات الشيخ محمد شاكر

أما التيار الثانى : الذى كان يتمثل فى جريدة « الأخبار » : فإنه احترام الدين احتراماً تامًّا ، والعملُ الدائب الدائم على نشر الوعى الدينى .

وكان صدرها مفتوحاً لعلماء الدين ، يجدون فيها متنفساً لكل ما يجيش بصدورهم من آراء وأفكار .

وكنا – ونحن طلبة – نَسْعد بقراءة المقالات الدينية ، وكنا ننتظر – فى شوق ولهفة – مقالات المرحوم « الشيخ محمد شاكر » . كان قلمه قلم أديب ، وفكرته فكرة عالم ضليع ، وتنسيقه للأفكار – فى تسلسلها : مقدماتها ، ونتائجها – رائع .

ولقد رجوت نجله الأستاذ الأديب الكبير ، العملاق ، « محمود شاكر » أكثر من مرة ، أن يجمع آثار والده ، وآمل أن يوفقه الله تعالى إلى ذلك ، لينتفع بها الناس .

ومن الممكن أن نقول : إن جريدة « الأخبار » كان يسيطر عليها الجو الدينى – بصفة عامة – ولا نملك الآن إلا أن نضرع إلى الله تعالى أن يفيض على صاحبها « أمين الرافعى » شآبيب رحمته ، إنه تعالى نعم المجيب .

شوقى يرثى الرافعى

وحينما انتقل أمين الرافعى إلى رحمة الله تعالى قال فيه أمير الشعراء : شوقى ، قصيدة نفيسة نشرت فى شوقياته ، ننقل منها ما يلى .

أخذ الموتُ من يدِ الحقِّ سيفـاً ... خالـدىَّ الغِرَارِ[1] عضْباً صقِيلا
من سيُوفِ الجِهَـادِ فولاذُه الحـ ... ـقُّ فهلْ كانَ قَيْنُه جِبْرِيـلا
لَمَسَتْـه يـدُ السَّماءِ فكـان الـ ... ـبرْقَ والرعْـدَ خفقَـةً وصليلا

(١) الغِرار : حد السيف ، والعضب : السيف .

وإبَـاءُ الرِّجَـال أمضى من السيـ ... ـفِ على كفِّ فارِسٍ مسلُولا
ربَّ قلب أصـارهُ الخُلْقُ ضِرْغـا ... ماً وصدْرٍ أصاره الحقُّ غِيلا (١)
قيلَ : حَلِّله ، قلت : عرق من التّـ ... ـبر أراح البيـان والتحليـلا
لم يزِدْ فى الحـديـد والنـار إلا ... لمحـةً حرةً ، وصبراً جميلا
لم يخف فى حياتـه شبح الفقـ ... ـر إذا طاف بالرجـال مَهولا
جـاعَ حينـاً فكان كالليث آبى ... ما تلاقيـه يوم جـوع هزيـلا
تأكل الهرَّةُ الصِّغـارَ إذاجـا ... عت ولا تأكل اللَّبـاة الشُّبولا
قِيلَ : غال فى الرأى ، قلت : هبوه ... قـد يكون الغلو رأياً أصيلا
وقـديمـاً بنى الغلُـوُّ نفـوسـاً ... وقـديمـاً بنى الغلُـوُّ عقولا
وكم استنهض الشيـوخَ وأذكى ... فى الشباب الطّمـاح والتأميلا
ومن الـرأى مـا يكون نفـاقـاً ... أو يكون اتجاهـه التضليـلا
ومن النقـد والجـدال كـلام ... يشبـه البغىَ والخَنَا والفُضُولا
وأرى الصـدق ديـدنـاً لسليل الـ ... ـرافِعِيِّين والعفـافَ سبيـلا
عاش لم يغتب الرجـال ولم يجـ ... ـعل شئون النفوس قالاً وقيلا
قـد فقدنـا بـه بقيـة رهـط ... أيقظوا النيلَ واديـاً ونزيـلا
حرَّكـوه وكـان بـالأمس كالكهـ ... ـف حُزونـاً وكالرَّقيم سهـولا
يـا أمين الحقـوق أدَّيْتَ حتى ... لم تَخُنْ مصرَ فى الحقوق فتيلا
ولـو اسْطَعْت زدت مصـر من ... الحق على نِيلِها المبارك نيلا
لست أنسـاك قابعاً بين دُرْجَيـ ... ـك مُكِبًّا عليهمـا مشـغولا
قد تواريت فى الخشوع فخالُو ... كَ ضئيلا وما خُلِقْتَ ضئيلا

(١) الغِيلُ : موضع الأسد .

سائل «الشعب» عنك «والعَلَم» الـ ... ـخفاق أو سائل «اللواء» الظليلا
كم إمام قربت فى الصف منـ ... ـه ومغن قعدت منه رَسيلا
تنشد الناس فى القضية لحناً ... كالحوارى رتل الإنجيلا
ماضياً فى الجهاد لم تتأخر ... تزن الصف أو تقيم الرعيلا
ما تبالى مضيت وحدك تحمى ... حوزة الحق أم مضيت قبيلا
إن يفُت فيك مِنبرَ الأمس شعرى ... إن لى المنبر الذى لن يزولا
جل عن منشد سوى الدهر يلقيـ ... ـه على الغابرين جيلا فجيلا

صحف تابعة وملحدة ومأجورة

وإذا كنا قد سعدنا بجريدة «الأخبار» آنذاك ؛ فقد شقينا ببعض الجرائد والمجلات ، فى العصر الحاضر : شقينا بها ؛ لأنها أصبحت تابعة ، وأصبحت ملحدة ، وأصبحت مأجورة .

والتابعة — دائماً — مدّاحة ، مصفقة ، شأنها الطبل والزمر ، لا يرجى منها إصلاح ، أو اتجاه نحو الإصلاح . إنها صوت المتبوع بالحق ، وبالباطل .

والملحدة فى جودائم من سخط الله تعالى ومقته ؛ فهى هدامة لكل القيم ، تروّج للانحراف ، وتدعو إليه ، لا تعرف الفضيلة ؛ بل تهدمها : تهدمها بالقلم ، وتهدمها بالصورة ، وبالقصة ، وبالتمثيلية وبشتى الطرق والوسائل .

والمستغرب ، أن هذا اللون من الصحف والمجلات — التابع

الملحد المأجور لا يجد من المسئولين – ردعاً ، حين يهاجم الدين ، ويتطاول على علمائه ، وكأن المسئولين عن الصحافة – على تتابعهم وتغيرهم – لا يعنيهم شأن الدين ، فى قليل ولا فى كثير .

ونريد أن نقول فى صراحة : إن الذين لا يعنيهم شأن الدين ، قد تجردوا من الوطنية ، ومن الفضيلة . أما كونهم ليسوا بوطنيين ، فإن الوطنى يعنيه أن تسود الفضيلة وأن يسود الأمن فى المجتمع ، وأن يكون الأفراد والجماعات متمسكين بمكارم الأخلاق ، مجاهدين بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، وفى سبيل وطنهم . وكل هذا لا يكون إلا بنشر الوعى الدينى ، وبالتالى تقوية الشعور الدينى فى النفوس .

وأما كونهم ليسوا بفضلاء ، فهو بيّن بنفسه ؛ فالملحد لا يعرف الخلق الكريم ، والحياة – بالنسبة له – فترة استمتاع ، بكل وسائل المتع ؛ إنه لا يعرف الحرام ؛ حتى يجتنبه .

ولقد كتبت مرة ما يلى :

حرية الصحافة

الصحافة حرة فى حدود القانون .

وهى حرة فى حدود الدستور .

ولكنها من قبل ذلك ومن بعده حرة فى حدود الإسلام .

ثم هى من قبل ذلك ومن بعده حرة فى حدود الأخلاق .

على أن القانون والدستور قائمان على أن دين الدولة الإسلام ،

وعلى أن الخلق أساس المجتمع ، وعلى أن كل تيار يهوى بأفراد المجتمع نحو الشذوذ والانحراف إنما هو تيار آثم .

نقول ذلك بمناسبة الحديث عن حرية الصحافة ، والحديث عن أدب الجنس .

ومما لاشك فيه أن أدب الجنس لا يرتبط بالخلق الكريم إلا بالرباط العكسى ، وأن الرجل الكريم على نفسه وعلى الله لا ينحدر إلى هذا المستوى المكشوف الذى لا يتمثل فيه السمو الروحى وإنما تتمثل فيه الغريزة الشهوانية الجنسية فى أحط مظهر يمكن أن تظهر فيه . .

وهذا الأدب الجنسى يجد رواجاً لدى المراهقين ، وهذا الرواج معناه ثروة طائلة للمؤلف ، ومن أجل ذلك ، من أجل المال المكتسب بطريق خبيث يكتب الكتاب المنحرفون عن أدب الجنس .

وهؤلاء الكتاب لا يعرفون المثل العليا ولا المبادئ الشريفة ، وإنما همهم كل همهم المال من أجل اللذات ، ومن أجل الجنس ، أما الوطن ومصلحته ، وأما إفسادهم المراهقين ، ونشرهم الفساد متأثرين بأدب الجنس فذلك لا يثير ضميرهم الضحل فى كثير ولا قليل .

ولقد سارت فرنسا فى هذا الاتجاه بعد الحرب العالمية الأولى فكانت النتيجة أن دمرتها ألمانيا فى أيام معدودة ، ولقد أعلن زعيمها الماريشال بيتان – إذ ذاك – السبب فى انهيارها ، فلم يكن إلا تطبيق أدب الجنس ، والسير وراء كتاب أدب الجنس لتحقيق مثلهم السافلة .

هؤلاء الكتاب مثلهم فى الوطن كمثل الميكروب الخبيث ، بل إن خطرهم أشد ، وكما تحاسب الدولة الميكروب فتقضى عليه بالوسائل

المناسبة فكذلك الأمر بالنسبة لهؤلاء الكتاب الذين تتمثل فيهم العداوة الكاملة للفضيلة ، وبالتالى للوطن .

ولا يجوز قط أن تتخذ حرية الصحافة دعامة ليقول الكاتب ما يشاء ، فإن مقدسات الأمة إذا هدمت بالأقلام الخبيثة فإن مصير الأمة إلى الانهيار .

وعلى هذا يجب – فى منطق الأخلاق والوطن ، ولمصلحة الأخلاق والوطن – أن تضرب الدولة بيد من حديد على كل من يعيث فساداً فى مقدساتها : أخلاقاً وديناً ، مسمياً الدعوة السافرة إلى الانحلال أدباً ، وما هى إلا انعكاسات نفس شهوانية ظهرت على قلم كاتب لا يمت إلى الفضيلة بصلة . .

ورجاؤنا إذن حفاظاً على الدين والأخلاق والوطن ، وإنقاذاً للمراهقين ، أن تتكوّن فى الدولة رقابة خاصة بالكتب والصحف ووسائل الإعلام ، تراعى المثل العليا والمبادئ الشريفة .

وبالله التوفيق .

فصلت نفسى من المعهد

انتهت السنة الثالثة بمعهد الزقازيق ، وكذلك انتهت السنة الرابعة به أيضًا . . . وفى هاتين السنتين ، دفعتنى الظروف للجد والاجتهاد – بصورة غير عادية – فقد تقدمت لعدد من المسابقات ، آملاً النجاح فيها ، وبذلك حصلت على معلومات – فى مختلف العلوم والفنون –

تفوق المعلومات العادية ، لنظائرى من الطلاب .

فلما نقلت إلى السنة الأولى من القسم الثانوى رأيت أن الوقت فيها – بالنسبة لى ضائع أوشبه ضائع ؛ لأن ما لدى من علوم ومعرفة تتخطى حدود المقررات فى هذه السنة وما يليها . . .

وكانت نظم الأزهر – حينذاك – تبيح للطالب بالسنة الأولى الثانوية ، أن يتقدم مباشرة – لامتحان الشهادة الثانوية الأزهرية ، من الخارج .

وفكرت فى الأمر : فكرت فى أن أفصل نفسى من الأزهر ، وأن أتقدم ، فى آخر العام – من الخارج . لامتحان الشهادة الثانوية . وبعد تفكير طويل ، كان العزم وكان التصميم ، وفصلت نفسى من المعهد ، ولم أخبر بذلك والدى ، ولا أحداً من أسرتى .

رسبوا جميعاً . . إلا واحداً

واعتكفت فى المنزل ، أواصل الليل بالنهار فى المذاكرة ، والاستقصاء . وأديت الامتحان فى آخر العام ، وترقبت النتيجة ، ولم يطل بى الانتظار ، فقد أسفرت عن رسوب جميع الطلبة المتقدمين من الخارج رسوباً لا يبيح لهم دخول الدور الثانى ، ماعدا طالباً واحداً ، فإن له دوراً ثانياً فى النحو والصرف اسمه : « عبد الحليم محمود » هو أنا ! .

والحمد لله على هذا .

ألفية ابن مالك

ماذا أفعل فى النحو والصرف . ؟ طرحت على نفسى هذا السؤال . !

ثم قلت ، إن النحو والصرف لا يخرجان عن « ألفية ابن مالك » . فإذا حفظتها عن ظهر قلب . فقد ضمنت – بتوفيق الله تعالى – النجاح . . . واستغرقت فى حفظها ؛ وحفظتها فى إتقان . . . ودخلت الامتحان ! وتسلمت الأسئلة ، ثم أجبت عليها – فى سهولة ويسر كنت أستحضر « بيوت » الألفية التى يتناولها السؤال ، وأشرحها بشىء من الدقة . . . . ونجحت . . . وأرضى ذلك آمال والدى وشعوره نحوى . والحمد لله .

الأزهر

وعدت من جديد إلى القاهرة ، فى المسجد الشريف ، (الأزهر) .

« لقد قال لى مرة أحد كبار المفكرين الغربيين : إن جدران الأزهر وأعمدة الأزهر ، وأرض الأزهر ، وجو الأزهر ، كل ذلك مشبع بالعلم منذ مئات السنين » .

إنك فى الأزهر تعيش فى جو الإيمان ، وفى جو العلم ، وفى تاريخ عريق ، كله يدور حول العلم .

وإنك فى جو الأزهر تعيش فى جو من الجهاد ساد طيلة عشرة قرون ، حفظ على الأمة لغتها ، وحفظ عليها تراثها النفيس ، وحفظ عليها وعيها الدينى

ولعل الدولة تعترف بذلك عملياً ، فتعطى الأزهر ما يحتاج إليه (كل ما يحتاج إليه) حتى يصمد للنضال فى سبيل الله . . . . . ,

ومكثت فى الدراسة أربع سنوات ، كنت فى أثنائها متصلاً اتصالاً كبيراً بالجو الثقافى فى الأزهر ، وفى خارج الأزهر .

أساتذتى فى الأزهر

كان من بين مدرسى القسم العالى بالأزهر ، عديد من الشخصيات اللامعة فى العلم والمنزلة .

الشيخ محمود شلتوت

كان منهم الإمام الأكبر المرحوم الشيخ « محمود شلتوت » ، عالم ، مفكر ، قوى الحجة ، متحدث ، لبق .

الشيخ حامد محيسن

وكان منهم المرحوم الشيخ « حامد محيسن » . عالم ، مستقل التفكير ، لا يعرف التقليد فى رأى ، ولا يسوق الرأى دون برهان .

الشيخ سليمان نوار

وكان منهم المرحوم الشيخ « سليمان نوار » أديب ، طاهر القلب ، له ذوق فى البلاغة راق .

الدكتور محمد عبد الله دراز .

وكان منهم المرحوم الدكتور « محمد عبد الله دراز » يمثل الاتزان المتزن ، والخلق الكريم ، ثقف نفسه ، كأحسن ما تكون الثقافة ، آراؤه موفقة ، يتدفق أسلوبه فى البيان ، عذباً ، شهيًّا ، لا يمل .

الشيخ محمد عبد اللطيف دراز

ومنهم – أطال الله فى عمره – الشيخ محمد عبد اللطيف دراز . ثائر مناضل ، خطيب ممتاز ، لا يسأم من مساعدة الآخرين ، ولا يتوانى عن السعى فى مصالح الضعفاء ، حديثه ممتع ، وفى أسلوبه عذوبة .

الشيخ الزنكلونى

وعلى قمة اللامعين من رجال الأزهر ، كان المرحوم الشيخ « الزنكلونى » . عالم من كبار العلماء ، فيه جرأة نادرة ، وله فى الثورات سهم ، وله فى المشاورات السياسية سهم كذلك أما فى النضال العلمى فله أسهم مرموقة . وكان يعتبر نفسه أباً لكل من سمت به آماله ، وارتفع به طموحه عن مرتبة الإمعات : يأخذ بيده ، ويعاونه ، ويدفع عنه مكر الماكرين .

الإمام الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى

وكان فى الآفاق العليا – التى نتطلع إليها فى احترام وتقدير – الإمام

الأكبر المرحوم الشيخ « محمد مصطفى المراغى » ، عالم ، ذكى ، ذو شخصية جارفة ، مهيب ، صاحب رأى فى العلم ، وصاحب رأى فى السياسة ، بليغ الأسلوب .

أما صوته فى الخطابة ، وفى الدرس ؛ فإنه نغمة موسيقية عذبة ولعل الإذاعة تنتبه إلى ذلك فتعيد إذاعة ما عندها من خطبه ، وأحاديثه ، بين الحين والحين ؛ لينعم الناس بنعمة جميلة ، ويستفيدوا علماً غزيراً .

الإمام الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق

وكان فى هذه الآفاق العليا أيضًا المرحوم الإمام الأكبر الشيخ « مصطفى عبد الرازق » . عالم ، فيلسوف ، حيّ ، حليم ، كريم بماله ووقته لطلبة العلم ، ولغيرهم . خرَّج جيلاً من النابهين فى الجامعة ، وأسهم فى الحركة العلمية بجهـــود عظيمة : ألَّف ، وحاضر ، وكتب المقالات ، ووجه تلاميذه إلى التحقيق ، والتأليف ، والترجمة ، وفتح مكتبته الغنية بشتى الكتب ، ونوادرها ، لكل طالب علم مجد . . . . .

أسبغ الله – على من لحق منهم بالرفيق الأعلى – شآبيب رحمته ومد فى عمر من بقى منهم على قيد الحياة .

وليس الأمر هنا أمر استقصاء ، وإنما أحب أن أقول : إن هؤلاء جميعاً كانوا يمتازون بالجد فى تحصيل العلم ، وما من شك فى أنهم لم يضيعوا وقتاً فى اللغو ، وإنما سهروا الليالى فى تحصيل العلم ، وكانت ثمرة ذلك أن أصبحوا من النابهين .

بهذا القدر المشترك ، وبصفات أخرى لكل منهم ، تميزه عن غيره ، وتعلو به فى مجالات الرفعة مراتب ، تختلف وتتفاوت .

ولا أحب أن أترك هذا المجال ، قبل أن أتحدث ، عن رأى من آراء الشيخ « مصطفى عبد الرازق » وعن توجيه من توجيهاته .

أما الرأى ، فهو ما تحدث به : من أن منطق المسلمين هو (أصول الفقه) .

وهذا الرأى إنما هو إلهام من توفيق الله تعالى .

إن المسلمين – حينما ترجموا الفلسفة اليونانية ، فى عهد « المأمون » على الخصوص ، وبتوجيه منه وتشجيع – اندفعوا فى سبيل تعلمها ، ودراستها ، ونشرها . وتخصص فيها من تخصص ، وألّف وحبّذ ، وأشاد . وراج للفلسفة اليونانية – فى الوسط الإسلامى – جو من التأييد مستفيض .

والفلسفة اليونانية ، فلسفة وثنية ، وأعنى بذلك : أنها فلسفة لا تنبع عن الوحى ، فليس لها أساس من الدين ، وكل ما كان كذلك فهو وثنى . . .

أرأيت إلى النبات يخرج من الأرض دون أن تكون هناك يد تتعهده ! ؟ . . . إننا نطلق عليه أنه : « نبات شيطانى » كذلك الأمر فيما يتعلق بالآراء الروحية ، التى لا تنبت فى الجو الدينى ، فيتعهدها الوحى بالرعاية ، والهداية ، والتوجيه ؛ إنها « آراء شيطانية » ، أى آراء وثنية .

ولقد حاول مخترعوها أن يجدوا – فى غير الوحى – مقياساً يرجعون

إليه ؛ لتمييز حقها من باطلها ، فاخترع « أرسطو » المنطق .

وأخفق المنطق الأرسطى إخفاقاً تامًّا ، لم يفد – ولا قلامة ظفر – فى بيان الحق والباطل ، ولم تستفد الإنسانية منه – ولا شروى نقير – أية فائدة .

ومع ذلك فقد فتن به قوم ، ودامت الفتنة – فى جونا الإسلامى – إلى الآن .

وعلى الرغم مما كتبه الإمام « ابن تيمية » فى « نقد المنطق » ، وفى « نقض المنطق » ، وفى « الرد على المنطقيين » .

وعلى الرغم من توفيق الله له توفيقاً كاملاً فى ذلك ؛ فقد بقى المنطق فتنة للكثيرين .

وكان وما يزال يدرس فى الأزهر – لا على أنه صورة من صور الضلال الفكرى – وإنما على أنه قاعدة من القواعد العلمية .

وجاء المرحوم الشيخ « مصطفى عبد الرازق » ونبّه على أن منطق المسلمين إنما هو « أصول الفقه » ؛ إنه القواعد التى رسمت فى الجو الإسلامى ؛ ليسير الرأى فى ضوئها على ما يحب الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم .

ولقد وفق « الشيخ مصطفى عبد الرازق » فى ذلك كل التوفيق ، واستفاض فيه فى كتاب : « تمهيد لدراسة الفلسفة الإسلامية » وهو فى سبيل زيادة البيان عن ذلك ، كتب عن الإمام « الشافعى » ؛ إذ أن الإمام الشافعى رضى الله عنه هو أول من ألف فى « أصول الفقه » . لقد كتب فى ذلك كتابه « الرسالة » وهى تتسم بالأسلوب الأدبى ،

الجزل : أسلوب الشافعى الأديب ، وتتسم بالعلم الغزير : علم الشافعى الفقيه .

وعن الشافعى وعن رسالته وعن علم أصول الفقه يقول المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق فى كتابه المعنون : « الإمام الشافعى » ما يلى :

إذا كان الشافعى هو أول من وجّه الدراسات الفقهية إلى ناحية علمية فهو أيضاً أول من وضع مصنفاً فى العلوم الدينية الإسلامية على منهج علمى بتصنيفه فى أصول الفقه . .

قال الرازى : اتفق الناس على أن أول من صنف فى هذا العلم – أى علم أصول الفقه – الشافعى ، وهو الذى رتب أبوابه ، وميز بعض أقسامه من بعض ، وشرح مراتبها فى القوة والضعف .

وروى أن عبد الرحمن بن مهدى التمس من الشافعى وهو شاب أن يضع له كتاباً يذكر فيه شرائط الاستدلال بالقرآن والسنة ، والإجماع والقياس ، وبيان الناسخ والمنسوخ ، ومراتب العموم والخصوص ، فوضع الشافعى رضى الله عنه « الرسالة » وبعثها إليه ، فلما قرأها . عبد الرحمن بن مهدى قال :

« ما أظن أن الله عز وجل خلق مثل هذا الرجل »

ثم قال الرازى : واعلم أن نسبة الشافعى إلى علم الأصول كنسبة « أرسطاطاليس » إلى علم « المنطق » . . .

ثم قال :

«الناس كانوا قبل الإمام الشافعى يتكلمون فى مسائل أصول الفقه » ويستدلون ويعترضون ، ولكن ما كان لهم قانون كلى مرجوع إليه فى

معرفة دلائل الشريعة ، وفى كيفية معارضتها وترجيحاتها ، فاستنبط الشافعى علم « أصول الفقه » ، ووضع للخلق قانوناً كلياً يرجع إليه فى معرفة أدلة الشرع . .

وقال الرازى :

واعلم أن الشافعى صنف كتاب « الرسالة » ببغداد ، ولما رجع إلى مصر أعاد تصنيف كتاب « الرسالة » ، وفى كل واحد منهما علم كثير .

ويقول بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى المتوفى سنة ٧٩٤ هـ فى كتابه فى أصول الفقه المسمى « بالبحر المحيط » فصل :

الشافعى أول من صنف فى أصول الفقه ، صنف فيه كتاب الرسالة ، وكتاب أحكام القرآن ، واختلاف الحديث ، وإبطال الاستحسان وكتاب جماع العلم ، وكتاب القياس ، الذى ذكر فيه : تضليل المعتزلة ورجوعه عن قبول شهادتهم . .

ثم تبعه المصنفون فى علم الأصول ، قال أحمد بن حنبل : « لم نكن نعرف الخصوص والعموم حتى ورد الشافعى » . .

وقال الجوينى فى شرح الرسالة : لم يسبق الشافعى أحد فى تصانيف « الأصول » ومعرفتها ، وقد حكى عن ابن عباس « تخصيص عموم » ، وعن بعضهم « القول بالمفهوم » ، ومن بعدهم لم يقل فى الأصول شيئاً ، ولم يكن لهم فيه قدم ، فإنا رأينا كتب السلف من التابعين وتابعى التابعين وغيرهم فما رأيناهم صنفوا فيه . . (من نسخة خطية بالمكتبة الأهلية بباريس) . .

ويقول ابن خلدون فى المقدمة :

« وكان أول من كتب فيه – أى فى علم أصول الفقه – الشافعى رضى الله عنه ، أملى فيه رسالته المشهورة ، تكلم فيها فى : الأوامر والنواهى ، والبيان ، والخبر والنسخ ، وحكم العلة المنصوصة من القياس ، ثم كتب فقهاء الحنفية فيه ، وحققوا تلك القواعد ، وأوسعوا القول فيها ، وكتب المتكلمون أيضاً . .

وفى كتاب « طبقات الفقهاء » للقاضى شمس الدين العثمانى الصفدى : « وابتكر الشافعى ما لم يسبق إليه . . من ذلك : أصول الفقه ، فإنه أول من صنف أصول الفقه بلاخلاف ، ومن ذلك : كتاب القسامة ، وكتاب الجزية ، وكتاب قتال أهل البغى » . (من نسخة خطية بدار الكتب الأهلية بباريس) .

ويقول صاحب كتاب « كشف الظنون » ، وأول من صنف فيه الإمام الشافعى . . ذكره الأسنوى فى التمهيد ، وحكى الإجماع فيه

والباحثون فى هذا الشأن من الغربيين يرون فى الشافعى : واضعاً « لأصول الفقه » . . يقول « جولدزيهر » فى مقالته فى كلمة (فقه) فى دائرة المعارف الإسلامية :

« أظهر مزايا محمد بن إدريس الشافعى أنه وضع نظام الاستنباط الشرعى من أصول الفقه ، وحدد مجال كل أصل من هذه الأصول ، وقد ابتدع فى « رسالته » نظاماً للقياس العقلى الذى ينبغى الرجوع إليه فى التشريع ، من غير إخلال بما للكتاب والسنة من الشأن المقدم ، ورتب الاستنباط من هذه الأصول ، ووضع القواعد لاستعمالها بعد ما كان جزافاً . .

وقد لا يكون بعيداً عن غرض الشافعى فى وضع أصول الفقه أن يقرب الثقة بين أهل الرأى وأهل الحديث ، وتمهد للوحدة التى دعا إليها الإسلام .

أما التوجيه : فهو ما أرشد الشيخ إليه الدكتور « على سامى النشار » .

لقد كان الدكتور « على سامى النشار » من تلامذة الشيخ « مصطفى عبد الرازق » ووجهه إلى نشر كتاب « الإمام السيوطى » . « صون المنطق والكلام عن فنّى المنطق والكلام » .

وهو كتاب ينقد المنطق الأرسطى ، بقلم كبار المسلمين ، وينقد الانغماس فى الجدل فى علم الكلام ، بأقلام كبار علماء المسلمين أيضاً .

وإذا كان المرحوم « الشيخ مصطفى عبد الرازق » قد أفاض — فى كتابه « التمهيد » . فى الرد على النزعة التى تتجه إلى البحث فى علم الكلام ؛ فإن توجيهه للدكتور « على سامى النشار » لنشر هذا الكتاب كان تأكيداً ، أو زيادة بيان لما سبق أن حاوله : من التنبيه على أن العناية بالجدل الكلامى ، وتدريسه — على هذه الصورة المستفيضة ، والتى لا نتيجة لها ، ليس من الأمور المحمودة .

مصطفى عبد الرازق وعلم الكلام

ومما كتبه الشيخ مصطفى عبد الرازق عن الجدل والمماراة فى علم الكلام ما يلى :

« تقرير العقائد الدينية فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام » .

جاء الإسلام يقرر أن الدين الحق واحد ، هو وحى الله إلى جميع

أنبيائه ، وهو عبارة عن الأصول التى لا تتبدل بالنسخ ولا يختلف فيها الرسل ، وهى هدى أبداً .

أما الشرائع العملية فهى متفاوتة بين الأنبياء ، وهى هدى ما لم تنسخ ، فإذا نسخت لم تبق هدى . .

قال الزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨ هـ (١١٤٣ – ٤٤ م) فى تفسير قوله تعالى :

« أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ . . . (١) »

« والمراد بهداهم طريقتهم فى الإيمان بالله وتوحيده وأصول الدين ، دون الشرائع فإنها مختلفة ، وهى هدى ما لم تنسخ ، فإذا نسخت لم تبق هدى ، بخلاف أصول الدين فإنها هدى أبداً »

قال ابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ هـ (١٣٢٧ م) :

« وقد أرسل الله جميع الرسل ، وأنزل جميع الكتب بالتوحيد الذى هو عبادة الله وحده لا شريك له ، كما قال تعالى :

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢) » .

وقال تعالى :

« واسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (٣) » .

---

(١) الأنعام : ٩٠ .

(٢) الأنبياء : ٢٥ .

(٣) الزخرف : ٤٥ .

وقال تعالى :

« وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اعْبُدُوا اللهَ واجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ ومِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ » .

وقال تعالى :

« يَأَيُّها الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ واعْمَلُوا صالِحاً إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ، وإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وأنا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ » .

وقد قالت الرسل كلهم مثل نوح وهود وصالح وغيرهم : « أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ واتَّقُوهُ وأَطِيعُونِ » ، فكل الرسل دعوا إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وإلى طاعتهم ، والإيمان بالرسل هو الأصل الثانى من أصلى الإسلام (١) .

وقد بعث محمد ، عليه الصلاة والسلام ، بدين وشريعة ، أما الدين فقد استوفاه الله كله فى كتابه الكريم ووحيه ، ولم يكل الناس إلى عقولهم فى شىء منه ، وأما الشريعة فقد استوفى أصولها ثم ترك للنظر الاجتهادى تفصيلها .

وجاء فى القرآن المجيد :

« اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى ورَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً (٢) » .

وكان نزول هذه الآية فى يوم عرفة عام حج النبى ، صلى الله عليه وسلم ، حجة الوداع ، ولم يعش النبى بعد نزول هذه الآية إلا إحدى

---

(١) مجموعة الرسائل والمسائل جـ ١ ص ٣٥ .

(٢) المائدة : ٣ .

وثمانين ليلة ، ولم يمت رسول الله حتى كمل الدين .

روى الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ (٩٢٢ - ٢٣ م) عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية : « اليَوْمَ أكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ - وهو الإسلام ، قال : أخبر الله نبيه ، صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أنه أكمل لهم الإيمان فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً ، وقد أتمه الله عز وجل فلا ينقصه أبداً ، وقد رضيه فلا يسخطه أبداً » .

وقد بعث محمد صلى الله عليه وسلم بدين الإسلام ، داعياً إلى الوحدة فى الدين ، وإلى التآلف ، ناهياً عن الفرقة ، كما فى آيات كثيرة من القرآن ، منها :

« إنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وكانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىءٍ إنَّمَا أمْرُهُمْ إلَى اللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كانُوا يَفْعَلُونَ [١] » .

وكان على القرآن أن يجادل مخالفيه من أرباب الأديان والملل فى العرب ، ردًّا للشبهات التى كانوا يثيرونها حول عقائد الدين الجديد ، على أنه كان لا يمد فى حبل الجدل حرصاً على الألفة . وكثيراً ما تختم آيات الجدل بمثل قوله :

« وإنْ جادَلُوكَ فَقُلِ اللهُ أعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ، اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُون [٢] » .

هذا الجدل فى العقائد عرض له القرآن للحاجة وعلى مقدارها ، من غير أن يشجع المسلمين على المضى فيه ، بل هو قد نفرهم منه ، فى مثل قوله :

---

(١) الأنعام : ١٥٩ .

(٢) الحج : ٦٨ - ٦٩ .

« ومِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصارَى أَخَذْنا مِيثاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ . فَأَغْرَيْنا بَيْنَهُمُ العَداوَةَ والبَغْضاءَ إِلَىٰ يَوْمِ القِيامَةِ وسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ » .

جاء فى كتاب « مختصر جامع بيان العلم » :

« وعن العوّام بن حوشب عن إبراهيم التيمىّ فى قولهِ تعالى :

« فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ العَدَاوَةَ والبَغْضَاءَ » . قالَ : الخصومات بالجدل فى الدين » .

وهذا يتفق مع قول كثير من المفسرين ، كالزمخشرى ، والبيضاوى المتوفى سنة ٧٩١ هـ (١٣٨٩ م) .

كان لهذه المعانى الدينية التى قررها الإسلام منذ نشأته أثرها العظيم فى توجيه النظر العقلى عند المسلمين فى عهدهم الأول ، فكرهوا البحث والجدل فى أمور الدين دون أمور الأحكام الفقهية .

وفى كتاب « تأويل مختلف الحديث » لابن قتيبة الدينورى المتوفى سنة ٢٧٦ هـ (٨٧٨ — ٧٩٠م) بصدد الطعن على المختلفين فى أصول الدين :

قال أبو محمد : لو كان اختلافهم فى الفروع والسنن لاتّسع لهم العذر عندنا ، وإن كان لا عذر لهم مع ما يدعون لأنفسهم ، كما اتسع لأهل الفقه ووقعت لهم الأسوة بهم ، ولكن اختلافهم فى التوحيد ، وفى صفات الله تعالى ، وفى قدرته ، وفى نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار ، وعذاب البرزخ ، وفى اللوح ، وفى غير ذلك من الأمور التى لا يعلمها إلا نبى بوحى من الله تعالى (١)» .

(١) تأويل مختلف الحديث .

نتائج ثلاث

أما النتيجة التى ينتهى إليها تفكير الشيخ مصطفى عبد الرازق ، وهى نتيجة ينتهى إليها كل مفكر يتحرى الصواب والحق فهى :

١ – منطق المسلمين هو أصول الفقه .

٢ – المنطق الأرسطى لا فائدة فيه .

٣ – الاستفاضة فى الجدل الكلامى غير محمودة .

هذه الزوايا مما عُنِى بها المرحوم ، الشيخ « مصطفى عبد الرازق » . وقد صاحبه التوفيق ، وهداه الله إلى الصراط المستقيم .

كنت أحضر الدروس فى الأزهر ، وكنت أحرص على حضور المحاضرات التى تلقى – هنا وهناك فى القاهرة – خارج الأزهر .

وكان محط أنظارنا ، جمعية « الشبان المسلمين » ، فقد كان فيها نشاط دائم ، وكان للقائمين عليها – آنذاك – عناية صادقة بهداية الشباب ، وكان الدكتور « أحمد محمد الغمراوى » – عليه رحمة الله تعالى – من الدائبين على إلقاء المحاضرات فيها ، كل أسبوع تقريباً . وكان الموضوع الذى يتحدث فيه دائماً هو : « الإسلام والعلم » .

كان أحيانا يلقى المحاضرة على الطريقة السائدة التقليدية ، ولكنه – فى أغلب الأحايين – كان يستمع إلى الأسئلة ويرد عليها ، وما كانت المحاضرة تخرج عن أسئلة ، وإجابة على الأسئلة .

ولا بد من كلمة فى موضوع : « الإسلام والعلم » .

إن كلمة « العلم » حينما تذكر فى هذا المجال ، إنما يقصد بها المفهوم الغربى لهذه الكلمة : والمفهوم الغربى لكلمة العلم هو « القواعد التى تقوم على أساس من الملاحظة ، والتجربة ، والاستقراء » . وماعدا ذلك فإنه – فى المفهوم الغربى – لا يسمى علماً .

وعلى هذا الأساس فالفلسفة لا تسمى علماً .

وما يرجع إلى الذوق – كالفنون بمختلف ألوانها – لا يسمى علماً .

وهناك علم ، وفلسفة ، وفن ، ودين .

فما بنى على الملاحظة ، والتجربة ، والاستقراء فهو علم .

وما بنى على العقل البحت فهو : فلسفة .

وما بنى على الذوق فهو : فن .

وما بنى على الوحى : فهو دين .

ومن المؤسف أن كبار المفكرين – فى مصر – أثاروا موضوع : العلاقة بين « العلم والدين » فى مجلة « السياسة الأسبوعية » – وكانت تظهر أيام أن كنا طلبة بالقسم العالى ، وكنا ننتظر صدورها بشغف – فخلطوا بين هذه المفاهيم ، ولهذا الخلط – الذى وقع منهم : من كبارهم – فإنهم لم يصلوا إلى نتيجة ترضى الحق .

وكان خلطهم واضحاً بين العلم والفلسفة .

وما من شك فى أن الحديث عن العلم – بالمفهوم الذى ذكرناه – وعن الدين ، يختلف عن الحديث فى موضوع العلاقة بين الدين والفلسفة .

واختلاف الدين ، وبعض الآراء الفلسفية اختلاف دائم ، ولا ضير

فى ذلك ؛ فإن الخلاف فى الفلسفة نفسها : بين فيلسوف وآخر ، وبين عصر وعصر ، خلاف مستمر .

والفلسفة يهدم بعضها بعضاً ، وكل فيلسوف يهدم كل من عداه . وكل مدرسة فلسفية تخطئ جميع المدارس التى تخالفها .

وهذا الاختلاف نشأ منذ أن نشأت الفلسفة .

ولم يصل الفلاسفة إلى مقياس يفصل فيما بينهم ، يفصل بين الحق والباطل ، بين الخطأ والصواب .

ليس فى الفَلسفة يقين ؛ إن الآراء الفلسفية كلها – دون استثناء – ظنيّة . إنها ظنيّة باعتبارها فلسفة رأى باعتبارها اختراع بشرى – فى مسائل لا مجال لمقياس فيها ، لا مجال للفصل فيها .

إنها ظنية ، لا تريم عن ظنيتها على مدى العصور ، وعلى مختلف البيئات .

بل إنه يمكن أن يقال – بيقين – إن الفلسفة لا رأى لها ؛ إنها لا رأى لها فى أية مسألة من المسائل الجزئية ، وهى لا رأى لها فى أى موضوع من الموضوعات الكلية .

والأمر بدهى ؛ فإنه ما دام كل رأى فلسفى يعارضه رأى آخر فلسفى ، ويعارض الرأيين ، رأى ثالث فلسفى وهكذا . . . فتكون النتيجة أنه لا رأى للفلسفة .

فإذا اختلفت الفلسفة والدين ، أو بتعبير أدق ، إذا اختلفت بعض الآراء الفلسفية والدين ، فهى المخطئة ، والدين هو المصيب . . . هى المخطئة والرأى الفلسفى المعارض لها ، الموافق للدين هو الصواب .

إنه الصواب – لاباعتباره رأياً فلسفيًّا – وإنما باعتباره متفقاً مع الرأى الدينى الصواب .

ولا قيمة مطلقاً – فى المجال الدينى – للاختلاف بين بعض الآراء الفلسفية ، والدين . وكل اختلاف من هذا القبيل ، لا يؤبه له ، ولا يقام له وزن .

والموضوع الحقيقى : إنما هو موضوع « الصلة بين الدين والعلم » هل بينهما تعارض ؟ .

إن هذا الموضوع يُثَارُ كثيراً . فكيف نشأت الفكرة ؟ .

إن نشأة هذا الموضوع معروفة ، محدودة ، كتب عنه الغربيون كثيراً ، لأنه نشأ فى ربوعهم . .

عند نشأة النهضة الأوربية كانت الكنيسة – فى أوربا – متحكمة ، مسيطرة . وقد أقامت محاكم التفتيش للتنكيل بكل من يخرج عليها .

وكانت محاكم التفتيش قوية ، قاسية ، رهيبة ، تثير الرعب ، وتبث الفزع فى كل نفس . وذلك لما كانت تصبه من ألوان العذاب : على التهمة ، وعلى الشبهة ، وعلى الظن ، وعلى مجرد الشائعة . وعلى الاتهام بطريق ورقة – من مجهول – تصل بالبريد ، بدون توقيع .

وكان العذاب – أحياناً – يتمثل فى الإلقاء فى الزيت المغْلى ، أو الربط فى ذيول الخيول المسرعة فى عدوها ، ليتمزق المعذَّب ، ويتناثر أشلاء ، فضلاً عن القتل بأنواعه المعروفة .

وكانت الكنيسة – وهذا فى غاية الغرابة – قد تبنت آراء « أرسطو » – لماذا ؟ . ليس هناك من سبب معقول . . . ! ! .

تبنتها ، وحرّمت نقدها ، فضلاً عن نقضها .

وقامت النهضة على الملاحظة ، والتجربة ، وأخذ العلماء يرون — فى آراء « أرسطو » فى الطبيعة — الخطأ بعد الخطأ ، وكان الجزاء التعذيب ، والتنكيل .

ويسير العلم — قدماً — فى طريقه ، وتسير الكنيسة — قدماً — فى طريقها . . . وجاء اليوم الذى صار فيه العلماء من الكثرة بحيث قهروا آراء « أرسطو » المخطئة .

وبدا للناس أن الدين — ويمثله رجال الكنيسة ، ورجال محاكم التفتيش — يعارض الدين الذى يمثله العلماء . . . .

لا تعارض بين الدين والعلم

ونشأت مشكلة « تعارض الدين والعلم » .

نشأت نشأة مزيفة ؛ فإن التعارض إنما كان بين آراء « أرسطو » والعلم : كان بين آراء رجال الكنيسة ورجال العلم ، ولم يكن — فى حقيقة الأمر — بين الدين والعلم .

ولكن تيار الإلحاد المتتابع ، تابع الحملة على الدين ، متحدثاً عن وقائع حدثت ، لا عن اختلاف الموضوعات الثابتة .

يتحدث الملاحدة عن تعذيب هذا ، والتنكيل بذاك ، وليس هذا موضوع القضية ! . وإنما موضوعها ، تعارض مبادئ الدين ، وما أثبته العلماء من قواعد مبنية على التجربة . ولم يثبت الملاحدة ذلك فى يوم من الأيام .

على أن الملاحدة حينما يتحدثون عن ذلك ، يجانبهم التوفيق من جانب آخر ؛ وذلك ، أن موضوع « العلم » المادة : إنه القواعد التى بنيت على التجربة ، والملاحظة .

وموضوع الدين . العقائد ، والأخلاق ، والتشريع ، ونظام المجتمع ، والتقوى ، وصلاح الفرد ، وصلته بالله تعالى ، وصلته بأخيه الإنسان فى المجتمع ، والرقى بالفرد ، وبالمجتمع ، إلى القرب من الله تعالى ، ورضائه . وكل ذلك عن طريق الوحى المعصوم ، الذى أرسل الله به رسلهُ هداية للإنسانية . . . فأين هذا من المادة ، ومن موازينها ، ومقاييسها ؟ على أن المشكلة كلها ، بعيدة – تماماً – عن الجو الإسلامى ؛ إنها قضية غَرْبية بحتة ، قضية تتصل « بأرسطو » والكنيسة ، ومحاكم التفتيش ، وعلماء أوربا .

والذين أثاروا المشكلة فى الشرق ، جماعة من البَبْغَاوات ، درسوا فى أوربا ، ولقنهم سادتهم من الملاحدة ، أن بين الدين والعلم تعارضاً ، فتحدثوا بذلك فى الشرق – حديث الببغاوات – دون دراسة ، أو بحث ، أو فهم للموضوع فهماً حقيقياً .

ما كُتِبَ فى « السياسة الأسبوعية » وهو كثير ، مستفيض ، كان أكثره من هذا القبيل ، – النقل الببغائى – من غير فهم ناتج عن بحث ودرس .

جمعية الشبان المسلمين

وأعود ، فأستأنف القول :

كنت لا أتخلف عن محاضرات الدكتور « أحمد محمد الغمراوى » بجمعية « الشبان المسلمين » . وكان – رحمه الله تعالى . من أصدق الناس حديثاً ، وأعظمهم رأياً ، فى موضوع « العلم » . وفى موضوع « الدين » . . . وقد نشر له أخيراً كتاب ، « الإسلام فى عصر العلم » . وهو من أنفس كتبه . رضى الله تعالى عنه ، وأرضاه .

جمعية الهداية الإسلامية

وكنت أتردد – أيضاً – على جمعية « الهداية الإسلامية » . وكان المرحوم ، الإمام الأكبر ، الشيخ « محمد الخضر حسين » رئيساً لها .

الشيخ محمد الخضر حسين

والشيخ « محمد الخضر حسين » مؤمن صادق الإيمان ، مجاهد ، مناضل ، وهو تونسى المنبت ، والنشأة . . . جاهد فى صفوف الوطنيين ، حتى حكم عليه بالإعدام ، وجاء إلى مصر ، عالماً ، ثبتاً ، فقيهاً ، لغوياً ، أديبًا ، كاتباً ، من الرعيل الأول . . . وقد أرضى – بنزعته المعتدلة ،

وحجته القوية ، وتثبته مما يقول جميع الطوائف ، وذلك أن كل رأى يقول به ، إنما يستند إلى دليل واضح مقبول .

ولقد أسهم فى الحركة الفكرية الإسلامية ، بنصيب وافر ؛ فكتب فى كل ما أثير فى عصره الخصب فى الفكر ، والبحث .

كتب فى « الخلافة » ، وفى « الشعر الجاهلى » . وفى « حكمة الشريعة » . وفى صلاحية الشريعة لكل زمان ومكان » فقد كان عالماً ، تفرغ للعلم ، لم يشغله عنه شاغل من شواغل الدنيا ، أو الجاه والسلطان .

وحينما تولى « مشيخة الأزهر » — لم يغيّر شيئاً من عاداته ، كان على استعداد كامل ودائم لأن يعيش على كسرة من الخبز ، وكوب من اللبن . ؛ ولأنه لم يكن له فى شهوات المنصب من حظ ، فإنه كان — دائماً — يحتفظ باستقالته فى جيبه . ولقد كان يقول : « إن الأزهر أمانة فى عنقى ، أسلمها — حين أسلمها — موفورة ، كاملة وإذا لم يتأت أن يحصل للأزهر مزيد من الازدهار على يدىّ ، فلا أقل من ألا يحصل له نقص » .

ومات — رحمه الله تعالى — لم يخلّف من حطام الدنيا شيئاً . . . مات ، وقد قدّم لأخراه ، النصيب الأوفر ، من حياته ؛ بل كل حياته ، رضى الله عنه ، وأرضاه .

وقد جُمِعَ الكثير مما كتب ، وتمّ طبعه فى « لبنان » ، بعد وفاته . وهو كنز نفيس ، جم النفع ، لمن يحصله .

محمد فريد وجدى

وقد تعرفت – فى أثناء الدراسة بالقسم العالى – بالأستاذ الكبير « محمد فريد وجدى » . وكان يستقبل زائريه ، كل يوم بعد صلاة المغرب – لمدة ساعة – يتحدث إليهم ، ويجيب على أسئلتهم ، ويدلى برأيه فيما يُثارُ – من موضوعات – فى الصحف اليومية .

وقد كان الأستاذ « فريد وجدى » معنيًّا – كل العناية – بالتصدى لنزعات الإلحاد ، والمادية : يهاجمها ، ويرد عليها ، مستعيناً فى كل ذلك – بآراء كبار المفكرين الغربيين . وقد ألّف فى هذا الباب ، كتابه النفيس : « على أطلال المذهب المادى » .

وهو كتاب ، تشعر – لأول وهلة – أنه وليد دراسة متبصرة ، متأنية ؛ فقد أجاد فيه ، كل الإجادة .

وقد كتب « فريد وجدى » – وحده – دائرة للمعارف ، وهو عمل ضخم ، شاق ، لا ينهض به ، إلا العصبة ، أولو القوة فى العلم والمال . . . وألّف كتباً أخرى ، كثيرة ، متعددة البحوث ، من أنفسها ، كتاب : « الإسلام دين عام خالد » .

أسبغ الله شآبيب رحمته على « فريد وجدى » ؛ فقد كان أمة وحده . . . . كان يعيش فى شبه عزلة ، ولكنَّ قلمه كان يصول ويجول فى كثير من المعارك الفكرية . . . . وكان – لاتجاهه الإسلامى – يتعرض – كثيراً – لهجوم عنيف من الماديين والملحدين .

ولاتجاهه الإسلامى – أيضاً – كان عرضة للهجوم من حملة الأقلام من المسلمين ، أمثال المرحوم الشيخ « رشيد رضا » . فكثيراً ما كانت المعارك تقوم بينهما ؛ لاختلافهما فى فهم بعض المسائل الإسلامية .

روايات جورجى زيدان

وقد كتبت – فى أيامنا تلك – روايات ، تتناول التاريخ الإسلامى ، كتبها « جورجى زيدان » . وقد قرأت الكثير منها حين ظهورها .

وهذه الروايات لم تكتب من أجل إحقاق الحق . ولم تكتب لتعبر عن التاريخ الصادق ، وإنما كتبت بقصد تشويه الصورة الإسلامية الجميلة ، وتزييف الخلق العربى ، الأصيل ، الفاضل .

لم يكن « جورجى زيدان » مصرياً أصيلا ، بل كان من هؤلاء النازحين ، الذين آوتهم مصر ، ورحبت بهم ، وأنزلتهم منزلة التكريم ؛ من أمثال أصحاب « المقتطف » . وأصحاب « الهلال » . ومن أمثال « شبلى شميل » . و « يعقوب صروف » . فلم يرعوا إلاً ، ولا ذمة ، ولم يقدروا حرمة ولا كرامة ، وإنما غلبهم سوء الطبع ، وساقهم لؤم النزعة ، إلى الإساءة إلى الجو الإسلامى ، بل وإلى الجو المسيحى – اللذين أفسحا لهم ، مكاناً رحيباً ، يسوده الأمن ، والاطمئنان – وتمثلت هذه الإساءة فى نشر « الإلحاد ، والمادية ، والشك » . . . كما عاشوا فى كنف الاستعمار يسيرون فى ركابه ، ويمكنون له فى الأرض ، بالتشكيك ، ونشر المادية ، والإلحاد .

ومصر بلد مؤمن بطبيعته الطيبة ، وفطرته السليمة ، وكل من دعا فيه إلى المادية ، والإلحاد ، – إذا أمعنت النظر فى أمره – فستجده واحداً من ثلاثة : إما نازحاً إلى مصر ، وإما عميلاً للاستعمار ، وإما عميلا لأعداء الإسلام على اختلاف مشاربهم ، ومنابعهم . . . .

حصلت على « العالمية »

وكان خاتمة سنى الدراسة العالية بالقاهرة امتحان « العالمية » . . . . كان والدى رحمه الله تعالى يلازمنى ، فى الأيام التى سبقت الامتحان .

وحان يوم الامتحان « الشفوى » . وكان أصعب الامتحانات . . . . كانت اللجنة تتكون من خمسة من كبار العلماء . . . . وكان للامتحان – فى أيامنا تلك – رهبة ، وكان منه خوف ، وكان للشيوخ هيبة . . . وذهبت لأداء الامتحان .

أما والدى فإنه قد أسرع إلى ضريح العارف بالله « الإمام أحمد الدردير » واعتكف بمسجده – يقرأ من القرآن الكريم ما تيسر ، وبخاصة سورة « يس » : ويتضرع إلى الله تعالى أن يوفقنى ، ويكتب لى النجاح . . .

ونجحت . . . والحمد لله .

كان والدى – عليه رحمة الله – يحب أن يرانى مدرساً بالأزهر ؛ لقد كان ذلك يسعده ، كل السعادة . . .

من الأزهر إلى فرنسا

ولكنه فوجئ برغبتى الملحة فى السفر إلى « فرنسا » ، لإتمام دراستى فى جامعاتها ، . إنه لم يكن يتوقع ذلك . ولا يدور شىء منه فى خلده . . . وأخذ يثنينى عن عزمى بشتى الوسائل ، ولكن محاولاته لم تفلح . . . وأعلنت فى عزم مصمم التمسك برأيى فى السفر ، ولو لم يكن بيدى شىء من المال . وأخيراً رضى والدى بعد لأى ، ورافقنى إلى الإسكندرية ليودّعنى . . . وركبت الباخرة لأول مرة . . .